شـرح:

كتاب الكبائر

لِمُؤَلِّفِهِ الْإِمَام:

أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عُثْمَانَ الذَّهَبِيُّ

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخ

أ.د: سليمان بن سليم الله الرحيلي

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِمَشَايِخِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المجلس (٢٦)

بسم الله الرحمن الرحيم

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْصَّلَاةُ وَالْسَّلَامُ الأتمانِ الأكملانِ علىٰ المبعوثِ رحمةً للعالمين، وعلىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَعَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.

أَمَّا بَعْدُ،

ففي هذا المسجد الذي بناه النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أصحابه عند أول قدومه إلىٰ هذه المدينة المباركة، وصلىٰ فيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيامًا قبل أن ينتقل إلىٰ مسجده صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا المسجد الذي أسس علىٰ التقوىٰ من أول يوم، هذا المسجد الذي قال فيه النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَفِي ذَاكَ خَير».

هذا المسجد الذي كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأتيه كل سبت ماشيًا وراكبًا، فإذا دخله لم يخرج منه حتى يصلي فيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا المسجد الذي جعلت له فضيلة خاصة لم تجعل لمسجد من المساجد، وهي: أن من تطهر في بيته ثم أتى هذا المسجد، فصلى فيه صلاة، كان له كأجر عمرة.

في هذا المسجد نعقد هذا الدرس في شرح كتاب عظيم نافع، تمس الحاجة إليه في زماننا، ألا وهو: كتاب [الكبائر] للإمام الذهبي -رحمه الله عزَّ وجلَّ-.

ولا زال الكلام موصولًا عن الكبيرة الخامسة عشرة، وهي: الكِبر.

وقد تقدم بيان معنى الكِبر، وهو: أن يتعاظم الإنسان في نفسه، ويعجب بنفسه، حتى يرى أنه أعلى من الحق، فلا يخضع للحق، ويرد الحق، ويرى أنه أعلى من المخلوقين؛ فيحتقر الناس، ويترفع عليهم.

وقد عرفنا معاني بعض الكلمات المتفرعة عن الكبر، والمتعلقة به، وشرحنا بعض النصوص التي أوردها الإمام الذهبي.

ونكمل في هذا المجلس -إن شاء الله عزَّ وجلَّ- شرح ما يتعلق بهذه الكبيرة، فيتفضل الابن نور الدين -وفقه الله والسامعين- يقرأ لنا من حيث وقفنا.

(المتن)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين؛ نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، **أما بعد:**

فاللهم اغفر لنا ولشيخنا وللسامعين.

قال الحافظ الذهبي -رحمه الله تعالى- تحت الكبيرة الخامسة عشرة: وَقَالَ الله تَعَالَىٰ {إِن الله لَا يحب كل مختال فخور}.

(الشرح)

قال ربنا -سبحانه-: ({إِن الله لَا يحب كل مختال فخور}).

والمختال: هو المتكبر، الذي يرد الحق، ويحتقر الناس.

والفخور: هو الذي يفتخر على الناس بحسبه أو بماله، أو بعلمه، أو بنعم الله -عزَّ وجلَّ-، فيفتخر على الناس بهذا، ولا يشكر الله -عزَّ وجلَّ- على نعمه.

وقيل: إن الاختيال يكون في الفعل والهيئة، وإن الفخر يكون في الكلام.

فالاختيال: أن يتكبر الإنسان بهيئته، كمشيته، أو في لباسه.

والافتخار: أن يتكبر في كلامه، ويترفع على الناس بكلامه.

والشاهد: أن ربنا -سبحانه وتعالى- لا يحب كل متكبر يتكبر عن الحق وعلى الخلق، سواءً كان ذلك بأفعاله وبأقواله، ومن لا يحبه الله كيف يفلح؟! من لا يحبه الله كيف يحفظ؟! من لا يحبه الله كيف ينجو من السوء؟!

وهذا دليل على أن الكبر من أقبح الصفات التي يتصف بها الإنسان، وأنه من كبائر الذنوب.

(المتن)

قال -رحمه الله-: وَقَالَ صلىٰ الله عَلَيْهِ وَسلم: «قَالَ الله تَعَالَىٰ العظمة إِزَارِي والكبرياء رِدَائي فَمن نَازَعَنِي فيهمَا أَلقيته فِي النَّار» رَوَاهُ مُسلم. الْمُنَازعَة المجاذبة.

(الشرح)

هذا الحديث رواه مسلم بمعناه، ولم يروه بهذا اللفظ، وإنما رواه مسلم بلفظ: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْعِزُّ إِزارُهُ، والْكِبْرِياءُ رِداؤُهُ، فمَن يُنازِعُنِي عَذَّبْتُهُ»، هذا لفظ مسلم.

قال العلماء: وفي الحديث تقدير هو: قال الله -تبارك وتعالى-، هذا المحذوف المقدر يدل عليه آخر الحديث «فمَن يُنازِعُنِي»، والذي قال هذا هو الله -سبحانه وتعالى- كما أخبرنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وروى هذا الحديث أحمد وأبو داود وابن ماجه بلفظ: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: الكبرياءُ ردائي، والعظمةُ إزاري، فمَن نازعَني واحدًا منهُما، قذفتُهُ في النَّارِ».

ربنا -سبحانه وتعالى- هو العظيم، والعظمة صفته، فالله -سبحانه وتعالى- له العز والملك، ويعظمه خلقه، وتهابه المخلوقات، وقد كَمُلَ -سبحانه- في عظمته، وكل وصف يوجب التعظيم فهو له -سبحانه وتعالى-، وهو -سبحانه- عظيم في أسماءه، عظيم في صفاته، عظيم في أفعاله، عظيم في شرعه -سبحانه وتعالى-، فالله العظيم اسمه، والعظمة صفته.

وهو -سبحانه- المتكبر، والكبرياء صفته، فله الكبرياء في السماء والأرض، هو الذي لا شيء مثله، هو المتنزه عن كل سوء ونقص، هو المظهر عظمته لعباده، كل شيء دونه، وهو -سبحانه وتعالى- الأكبر كبيرًا، فالمتكبر اسمه، والكبرياء صفته -سبحانه وتعالى-.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: [**الكبرياء والعظمة لا تصلح إلا لله رب العالمين، والكبرياء فوق العظمة، كما جعل ذلك رداء وهذا إزارًا**].

شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- أخذ من هذا الحديث أن الكبرياء أفضل من العظمة، وأن التكبير أفضل من التعظيم؛ لأن الله -عزَّ وجلَّ- جعل العظمة إزارًا، والكبرياء رداءً، والرداء أفضل من الإزار، فالكبرياء أفضل من العظمة.

قال: [**وعظمته -سبحانه- تمنع العباد من إدراك البصر له، كما يصنع اللباس بلابسه؛ بحيث يمنع الاطلاع على دواخله**].

أي: شيخ الإسلام ابن تيمية يبيّن هنا لماذا قال الله في هذا الحديث: («العظمة إزَارِي والكبرياء رِدَائي»)، **لأمرين:**

الأمر الأول: أن العظمة والكبرياء لا تنبغي إلا لله -سبحانه وتعالى-، كما أن لباس الإنسان لا يكون إلا له.

والأمر الثاني: أن الكبرياء والعزمة تحجب الله -عزَّ وجلَّ- عن أن تدركه الأبصار، كما أن اللباس يحجب صاحبه من أن يدرك باطنه، وأن يرى باطنه.

وقد ذكر الشيخ العباد -حفظه الله عزَّ وجلَّ- أن هذا الحديث فيه بيان اختصاص الله -عزَّ وجلَّ- بالعظمة والكبرياء، قال الله -عزَّ وجلَّ- في هذا الحديث: (**فَمن نَازَعَنِي فيهمَا**)، أو «**فمَن نازعَني واحدًا منهُما**»، أي: من تعالى في نفسه، وتعاظم في نفسه أو تكبر عن الحق، أو احتقر الناس، فقد عذبته، أو ألقيته في النار. وهذا وعيد شديد للمتكبرين.

والمتكبر إن كان كافرًا تكبر عن الإسلام، فهو خالد مخلد في النار.

وإن كان مسلمًا فهو متوعد بهذا الوعيد الشديد، أن يعذبه الله بالنار، وأن يطول بقاؤه في النار إن دخلها، ولا شك أن هذا الوعيد يجعل المؤمن المصدق بكتاب الله وسنة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخشى الكبر، ويحذر الكبر، ويريد التواضع، ويعمل جاهدً على أن يكون من المتواضعين.

(المتن)

قال -رحمه الله-: وَقَالَ صلىٰ الله عَلَيْهِ وَسلم: «اختصمت الْجنَّة وَالنَّار فَقَالَت الْجنَّة مَالِي مَا يدخلني إِلَّا ضعفاء النَّاس وَسَقطهمْ وَقَالَت النَّار أُوثِرت بالجبارين والمتكبرين... الحَدِيث».

(الشرح)

عند البخاري: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قال:**« اخْتَصَمَتِ الجَنَّةُ والنَّارُ إلىٰ رَبِّهِما، فَقالتِ الجَنَّةُ: يا رَبِّ، ما لها»، أي: الجنة «لا يَدْخُلُها إلَّا ضُعَفاءُ النَّاسِ وسَقَطُهُمْ، وقالتِ النَّارُ: - يَعْنِي - أُوثِرْتُ بالمُتَكَبِّرِينَ، فقالَ اللهُ تَعالَىٰ لِلْجَنَّةِ: أنْتِ رَحْمَتِي، وقالَ لِلنَّارِ: أنْتِ عَذابِي، أُصِيبُ بكِ مَن أشاءُ، ولِكُلِّ واحِدَةٍ مِنْكُما مِلْؤُها، قالَ: فأمَّا الجَنَّةُ، فإنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِن خَلْقِهِ أحَدًا، وإنَّه يُنْشِئُ لِلنَّارِ مَن يَشاءُ، فيُلْقَوْنَ فيها، فَتَقُولُ: هلْ مِن مَزِيدٍ، ثَلاثًا، حتَّىٰ يَضَعَ فيها قَدَمَهُ فَتَمْتَلِئُ، ويُزَوَى بَعْضُها إلىٰ بَعْضٍ، وتَقُولُ: قَطْ قَطْ قَطْ».

وعند مسلم: «تَحاجَّتِ الجَنَّةُ والنَّارُ؛ فَقالتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بالمُتَكَبِّرِينَ والمُتَجَبِّرِينَ، وقالتِ الجَنَّةُ: ما لي لا يَدْخُلُنِي إلَّا ضُعَفاءُ النَّاسِ وسَقَطُهُمْ؟».

وفي رواية عند مسلم: «فَقَالَتِ الْجَنَّةُ: يَا رَبِّ، مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا فُقَرَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ؟ وَقَالَتِ النَّارُ: يَا رَبِّ مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ؟».

هذه خصومة حقيقة وقعت بين الجنة والنار، أدلت كل واحدة منهما بما تشتكي منه، والله -عزَّ وجلَّ- إن شاء جعل من يشاء يتكلم، فإن أعضاء بني آدم يوم القيامة تتكلم، وتشهد على صاحبها، والجنة مخلوقة موجودة، والنار مخلوقة موجودة.

وقد تكلمت الجنة كلامًا حقيقيًا، وتكلمت النار كلامًا حقيقيًا:

فقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا فقراء الناس، وضعفاء الناس، وسقط الناس؟

سقط الناس: هم الذين يسقطون من أعين الناس؛ لقلة الدنيا عندهم؛ لأن نظرة الناس، أكثر الناس نظرتهم إلى الناس بحسب المال والدنيا، فإن كان عند الإنسان مال ودنيا عظموه، وإن لم يكن عنده مال ولا دنيا سقط من أعينهم.

هؤلاء هم أغلب أهل الجنة.

وقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين.

المتكبر هو: الذي يتعالى عن الحق، ويحتقر الناس.

والمتجبر: هو الذي لا يرى ضعفاء الناس شيئًا.

ووجه الدلالة من الحديث: أن الحديث يدل على أن أغلب من في النار إنما هم من المتكبرين، إما تكبروا عن الحق، وإما تكبروا على الحق، واحتقروا الخلق، فدلَّ ذلك على أن المتكبرين يدخلون النار، وأن المتكبر قد يُخَلد في النار إن تكبر عن الإسلام، وقد يعذب في النار مدة طويلة إذا كان مسلمًا.

وإذا علم المؤمن أن أغلب من في النار هم من المتكبرين وإن كانت لهم ذنوب أخرى، إلا أن الكبر من أقبح ذنوبهم، فإن هذا يجعله حريصًا على أن يبرأ من الكبر، ويسلم من الكبر.

وهذا الحديث: دليل على أن الكبر من كبائر الذنوب؛ لأن هذا وعيد بالنار، وهذا من علامات كبائر الذنوب.

(المتن)

قال -رحمه الله-: وقال الله -تعالى-: {تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا}.

(الشرح)

(تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ)، أي: العز فيها، والنعيم فيها، نجعله للذين لا يريدون علوًا، لا يردون تكبرًا عن الحق، ولا احتقارًا للناس.

والحظوا! لا يردون مجرد إرادة، فينبغي على المسلم أن يسلم حتى من إراد ة الكبر، وليس فقط من الكبر نفسه؛ بل حتى من الإرادة، لا ينبغي للمسلم أن يريد الكبر ولو في نفسه، ولو لم يفعل شيئًا،

فإن الدار الآخرة بنعيمها وعزها إنما جعل ذلك ربنا -سبحانه وتعالى- (لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا).

وهذا الفساد يشمل كل أنواع الفساد، وأعظمه وأقبحه الفساد في الدين.

فنعيم الآخرة وعزها إنما جعله الله -عزَّ وجلَّ- لمن سلم من هاتين الخصلتين الذميمتين:

الخصلة الأولى: أن يريد الكبر، فمن سلم من إرادة الكبر فليبشر بالخير.

والخصلة الثانية: أن يريد الفساد، فمن سلم من إرادة الفساد فليبشر بالخير.

ومفهوم هذا: أن الذي يريد العلو في الأرض والفساد في الأرض لا يجعل الله له نعيم الآخرة وعزها، فكيف بمن يتكبر فعلًا، ويفسد فعلًا، فهذا وعيد شديد، يدل على أن الكبر من كبائر الذنوب.

(المتن)

قال -رحمه الله-: وَقَالَ الله تَعَالَىٰ: {وَلَا تصعر خدك للنَّاس وَلَا تمش فِي الأَرْض مرحًا إِن الله لَا يحب كل مختال فخور}.

(الشرح)

(وَلَا تصعر خدك للنَّاس)، أي: لا تتكبر على الناس، وتظهر كبرك في هيئتك، بحيث تلوي وجهك عن الناس كبرًا، وتعرض بوجهك عن الناس كبرًا، فإذا حدثك متحدث لويت وجهك وأعرضت متكبرًا، ومظهرًا كبرك.

(وَلَا تمش فِي الأَرْض مرحًا)، لا تمشي مختالًا فخورًا، متكبرًا، تمشي مشية المتكبرين.

(إِن الله لَا يحب كل مختال فخور)، وقد فسرنا هذا قبل قليل.

(المتن)

أَي لَا تمل خدك معرضًا متكبراً والمرح التَّبَخْتُر.

قال -رحمه الله-: وَقَالَ سَلمَة بن الْأَكْوَع: «أكل رجل عِنْد رَسُول الله صلىٰ الله عَلَيْهِ وَسلم بِشمَالِهِ قَالَ كل بيمينك قَالَ لَا أَسْتَطِيع فَقَالَ لَا اسْتَطَعْت مَا منعه إِلَّا الْكبر فَمَا رَفعهَا إِلَىٰ فِيهِ بعد»، رَوَاهُ مُسلم.

(الشرح)

رجل عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأكل بشماله، وقد نهى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الأكل بالشمال، والأكل والشرب بالشمال حرام ولو بدون كبر، هذا الراجح من أقوال أهل العلم؛ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن الأكل بالشمال، وعن الشرب بالشمال، والنهي يقتضي التحريم.

ثم أخبر أن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله، فهذا يدل دلالة بينة على التحريم.

لكن إذا كان الأكل بالشمال بسبب الكبر، أو الشرب بالشمال بسبب الكبر، فهذا أقبح، وأعظم ذنبًا.

فهذا الرجل شرب بشماله، وعلم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه ما شرب بشماله إلا كبرًا، حتى أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قال له: (**كل بيمينك**)، وهو يستطيع أن يأكل بيمينه، قال: (**لَا أَسْتَطِيع**) كبرًا، فرد الحق وتعالى، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (**لَا اسْتَطَعْت**)، أي: دعى عليه أن لا يستطيع أن يرفعها (**فَمَا رَفعهَا إِلَىٰ فِيهِ بعد**).

وهذا يدل على أن الأكل بالشمال والشرب بالشمال تكبرًا من كبائر الذنوب، وأغلب الذين يأكلون بالشمال إنما يفعلون ذلك كبرًا، وإلا فهم يستطيعون أن يأكلوا باليمين، وإذا قلت له: يا أخي كُل بيمينك، نظر إليك نظرة احتقار، وأعرض عنك، ولوى نفسه، وأكمل أكله بشماله.

فهذا يدل على أن هذا الفعل منه إنما هو من باب الكبر، وحتى إذا ذُكِروا بالحق يتعالون عليه، ويعرضون عنه -نعوذ بالله من سوء الحال- كيف يرضى المسلم أن يتصف بصفة لو رآه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليها لدعا عليه، هذا الرجل لما أكل بشماله؛ كبرًا، دعا عليه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكيف يرضى المسلم لنفسه هذا المقام؟! لو رآه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يأكل بشماله كبرًا لدعا عليه، فكيف يرتضي لنفسه هذا؟!.

(المتن)

قال -رحمه الله-: وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام: «أَلَا أخْبركُم بِأَهْل النَّار كل عتل جواظ مستكبر»، متفق عليه.

(الشرح)

هذا الحديث في الصحيحين، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (**أَلا أُخبركُم بِأَهْل النَّار**)، أي: ألا أخبركم بأغلب أهل النار، كما تقدم معنا في حديث احتجاج النار والجنة.

(**كل عتل**)، **من هو العتل؟**

العتل هو: الجافي، القاسي، الغليظ في كل شيء، الشديد في الخصومة، إذا خوصم كان شديدًا غليظًا، ويفجر في الخصومة، وهو غليظ قاسٍ في جميع أموره، والله رفيق يحب الرفق -سبحانه وتعالى-.

وأشد هؤلاء الكفار.

(**جواظ**)، الجواظ: هو المختال في مشيته، الذي يمشي مشية المتكبرين، يتمايل يمينًا وشمالًا؛ كبرًا.

(**مستكبر**)، هو المتكبر عن الحق، والمحتقر للخلق، فهؤلاء هم أغلب أهل النار -نعوذ بالله من النار-.

وهذا يدل على أن الكبر في الهيئة والفعل والقول من أعظم أسباب دخول النار، وعلى أنه من كبائر الذنوب.

(المتن)

قال -رحمه الله-: وقال عمر بن يوسف اليمامي قال حدثنا أبي قال حدثنا عكرمة بن خالد أنه لقي ابن عمر -رضي الله عنهما- فقال: «سَمِعت رَسُول الله صلىٰ الله عَلَيْهِ وَسلم يَقُول مَا من رجل يخْتَال فِي مشيته ويتعاظم فِي نَفسه إِلَّا لَقِي الله وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَان»، هذا علىٰ شرط مسلم.

(الشرح)

هذا الحديث رواه الحاكم في المستدرك، وقال: صحيح على شرط الشيخين.

الذهبي في التلخيص، قال: صحيح على شرط مسلم، كما قال هنا.

والعجيب أن الحاكم أخطأ والذهبي أخطأ، وأن الحديث على شرط البخاري، ليس على شرط الشيخين، ولا على شرط مسلم؛ لأن اليمامي لم يروِ له مسلم، وإنما روى له البخاري، وقد نبه على هذا أمير الحديث في زماننا المحقق المدقق الإمام الألباني -رحمه الله عزَّ وجلَّ- في سلسلة الأحاديث الصحيحة.

(قال ابْن عمر رَضِي الله عَنْهُمَا قَالَ سَمِعت رَسُول الله صلىٰ الله عَلَيْهِ وَسلم يَقُول: «مَا من رجل)، نكرة في سياق النفي، سبقها "من" فيدل علىٰ شدة العموم والشمول.

(مَا من رجل يختال فِي مشيته)، أي: يمشي مشية المتكبرين، ويتكبر في مشيته، ويتعاظم في نفسه، ويعجب بنفسه، ويتعالىٰ بنفسه (إِلَّا لَقِي الله وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَان).

وكيف يفلح الذي يلقىٰ الله -عزَّ وجلَّ- وهو عليه غضبان؟!.

فدل هذا الحديث: علىٰ أن الكبر في الفعل والهيئة من كبائر الذنوب.

(المتن)

قال -رحمه الله-: وَصَحَّ من حَدِيث أبي هُرَيْرَة «أول ثَلَاثَة يدْخلُونَ النَّار أَمِير مسلط أَي ظَالِم وغني لَا يُؤَدِّي الزَّكَاة وفقير فخور».

(الشرح)

هذا الحديث مرَّ بنا، وخرجناه هناك، وبيَّنا أنه ضعيف.

ممن رواه ابن حبان وابن أبي شيبة وأحمد وابن خزيمة، والحديث ضعيف الإسناد، وليس كما قال الذهبي هنا إنه صح عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد شرحنا الحديث هناك.

(المتن)

قال -رحمه الله-: قلت: وأشر الْكبر الَّذِي فِيهِ من يتكبر علىٰ الْعباد بِعِلْمِهِ ويتعاظم فِي نَفسه بفضيلته.

(الشرح)

التكبر بالعلم، والتعاظم به على الناس حمق، فأحمق الناس من تكبر بعلمه، وتعاظم على الناس بعلمه، وهو جهل كذلك.

قال أبو الدرداء -رضي الله عنه-: «عَلَامَةُ الْجَهْلِ ثَلَاثٌ: الْعُجْبُ وَكَثْرَةُ الْمَنْطِقِ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ وَأَنْ يَنْهَىٰ عَنْ شَيْءٍ وَيَأْتِيَهُ».

هذه علامة الجهل:

العجب: أن يعجب الإنسان بعلمه، فيتعاظم ويتكبر على الناس، هذا دليل على أنه جاهل، لو كان

عالمًا لتواضع، العلم يدعو إلى التواضع، والله -يا إخوة- أعلم الناس بجهله العالم، أي: أعلم الناس بجهل نفسه العالم؛ لأن العالم كلما ازداد علمًا أدرك كثرة ما يجهله، فيتواضع في نفسه، ويدرك أن الذي يجهله أكثر بكثير مما يعلمه، ويتواضع للناس، فإن العلم يدعو صاحبه إلى انكسار نفسه، وإلى التواضع.

ومن علامات الجهل: أن يكثر الإنسان الكلام في كل شيء، هذا الذي تجده يتكلم في كل شيء، هذا دليل على جهله، لو كان عالمًا لما تكلم إلا بما يحسن، وقال فيما لا يعلم: لا أدري، كما هو صنيع العلماء.

والعلامة الثالثة: أن ينهى عن الشيء ويأتيه، ينهى الناس عن القبائح، ويأتي هذه القبائح، وقال مسروق: «وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلاً أَنْ يُعْجَبَ بِعِلْمِهِ».

وقال كعب: «فَإِنَّهُ لَوْ مَلأَ عِلْمُكَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ مَعَ الْعُجْبِ مَا زَادَكَ اللهُ بِهِ إِلَّا سِفَالًا وَنَقْصًا».

«لَوْ مَلأَ عِلْمُكَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ»، **لكن ماذا؟**

مع العجب، مع الكبر.

«مَا زَادَكَ اللهُ بِهِ إِلَّا سِفَالًا وَنَقْصًا»، فالعلم النافع هو الذي يجعل العبد يخاف الله، ويقبل الحق، وإذا أخطأ رجع عن الخطأ إلى الحق، ويعرف للناس فضلهم، ويدرك أنه قد يكون العامي أكثر عبادة لله منه، فيتواضع، ولا يتكبر على الناس، ويسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن ينفعه بعلمه، ويخاف يوم اللقاء، يوم يلقى الله -سبحانه وتعالى- ويكلمه الله -سبحانه وتعالى-، فيكون متواضعًا للحق، لينًا جدًا للحق، حتى لو قال قولًا، واشتهر عنه، وعُرف به، ودافع عنه حينًا، ثم تبين له أنه خطأ يلين ويرجع سريعًا، ويعلن أنه أخطأ، وأن الصواب هو كذا.

أما الكبر فيدفع صاحبه إلى المكابرة، والمنازعة، والتعنت، ولو بيَّن له أهل العلم خطأه، ولو تبيَّن له خطأه، وهذا من السوء، ومن أقبح ما يكون من أنواع الكبر -والعياذ بالله-.

(المتن)

قال: فَإِن هَذَا لم يَنْفَعهُ علمه فَإِن من طلب الْعلم للآخرة كَسره علمه وخشع قلبه واستكانت نَفسه.

(الشرح)

ولذلك يقول العلماء: إذا أردت أن تعرف صلاح نيتك في طلب العلم أو فسادها فانظر إلى أثر العلم في نفسك، فإن وجدت أن العلم الذي تتعلمه يزيدك قربًا من الله، وطاعة لله، ولينًا للحق، وتواضعًا للخلق، فهذه علامة صحة نيتك، وإن وجدت أن العلم لا يؤثر فيك الأثر النافع الذي يذكره العلماء، فراجع قلبك، فإن أول الخلل في قلبك، في نيتك، وهذه علامة على فساد النية في طلب العلم.

(المتن)

قال -رحمه الله-: وَكَانَ علىٰ نَفسه بالمرصاد فَلَا يفتر عَنْهَا بل يحاسبها كل وَقت ويثقفها.

(الشرح)

التثقيف هو: التقويم، أن يُقوِم إعوجاج نفسه، فدائمًا يتفقد نفسه، فإذا وجدها اعوجت شيئًا قومها، وردها إلى الصواب والاستقامة.

(المتن)

قال -رحمه الله-: فَإِن غفل عَنْهَا جمحت عَن الطَّرِيق الْمُسْتَقيم وأهلكته وَمن طلب الْعلم للفخر والرياسة ونظر إلىٰ الْمُسلمين شذرًا.

(الشرح)

(ونظر إلىٰ الْمُسلمين شذرًا)، أي: باحتقار، نظر إليهم باحتقار متعاليًا بنفسه عليهم.

(المتن)

وتحامق عَلَيْهِم وازدراهم فَهَذَا من أكبر الْكبر وَلَا يدْخل الْجنَّة من كَانَ فِي قلبه مِثْقَال ذرة من كبر وَلَا حول وَلَا قُوَّة إِلَّا بِالله.

(الشرح)

يريد الذهبي -رحمه الله- أن يحذر طلاب العلم من أن يتكبروا بعلمهم ولا سيما في أول الطلب، فإن طالب العلم إذا بدأ في الطلب وحصل شيئًا من العلم، قد يغزوه الشيطان بالكبر،

والتعاظم.

وأول علامات تكبره وتعاظمه: أن يتعاظم على شيخه، وأن يتعاظم على طلب العلم، وأن يرى نفسه لا يصلح لأن يجالس طلاب العلم؛ بل مكانه المكتبة يقرأ بنفسه، ويتعلم بنفسه، ويذدري من يدعوه لأن يجلس في الحلقات مع أهل العلم، فإن هذه علامة على أن الشيطان قد اصطاده، وأوقعه في الكبر، وأنه يقوده إلى الوقوع في المهالك.

ينبغي على طالب العلم أن يحذر حذرًا شديدًا من أن يتعالى على الناس بعلمه، أو يغتر بعلمه؛ بل ينبغي أن يرقب نفسه، وأن يحمل نفسه على التواضع كلما ازداد علمًا كلما ازداد تواضعًا.

أسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن يرزقني وإياكم العلم النافع، وأن يبارك لنا في علمنا، وأن يجعل علمنا مقربًا لنا إلى ربنا، وأن يكفينا شر الرياء، وشر الكبر، وشر التعاظم على الناس.

أيها الفضلاء هذا هو آخر مجلس في درس مسجد قباء حيث سيتوقف الدرس إلى ما بعد رمضان -إن شاء الله عزَّ وجلَّ- وبعد رمضان مع استئناف الدراسة سنستأنف الدرس، أي: أول أسبوع تستأنف فيه الدراسة بعد رمضان سيكون عندنا درس هنا في يوم الثلاثاء في شرح كتاب [الكبائر] للإمام الذهبي. بارك الله في الجميع، وتقبل الله من الجميع، وشرح صدور الجميع.

أسأل الله -عزَّ وجلَّ- أن يسلمنا لرمضان، ويسلم لنا رمضان، وأن يعيننا فيه على الصيام والقيام، وأن يتقبله منا، وأن يجعلنا ممن يدركهم رمضان فيغفر لهم ربهم -سبحانه وتعالى-.

والله -تعالى- أعلى وأعلم، وصلى الله على نبينا وسلم.